د.وليد أحمد السيد
مستشار تطوير التراث العمراني
sayyedw14@gmail.com

نحو مدينة سعيدة متسامحة «٢»

في نفس المحور الذي تم عرضه في مؤتمر عجمان للتخطيط العمراني والذي يتمحور حول تحقيق البيئة والمدينة السعيدة والمتسامحة تم بحث جملة من المشكلات التي تعاني منها المدينة الكبيرة المعاصرة والتي تحول دون تحقيق البيئة السعيدة والخالية من المشكلات البيئية والصحية في نسختها الحسية، فضلا عن الاجتماعية النفسية التي تم بحثها في المحور الأول. ومن أبرز هذه المشكلات تتعلق بالسيارة والتلوث والصحة العامة للفرد والمدينة. وفي المحور الأخير تم عرض تصورات الفلاسفة للمدينة الفاضلة وجملة من التوصيات سعيا نحو أطروحة عامة لرفع كفاءة البيئة حسيا ونفسيا ومعنويا نحو بيئة أفضل واكثر سعادة وتسامحا من نواح اجتماعية على مستوى الفرد والمجتمع.

مشكلات السيارة

التلوث الأكبر في المدن الكبيرة . وكما تشير دراسات علماء الحضرية . تقوده السيارة وهو تلوث صوتي وتلوث بيئي . فالسيارات في العالم التي يبلغ مجموعها حوالي ٤٠٠ مليون سيارة تنفث أكثر من ٥٠٠ مليون طن من الكربون في الجو. وتستهلك الولايات المتحدة في صناعة السيارات خمس الحديد المتوفر بأميركا وثلثي المطاط. ويخصص تقريبا ثلث الارض في المدينة لطرق السيارات، ففي الولايات المتحدة الأميركية يحتل كل كيلومتر من الطرق السريعة حوالي ٦ هكتارات من الأرض.

مشكلة السيارة في المدينة الحديثة يتعدى ما سببته من تشوه وتغير كبير على نسيج المدينة الفيزيائي والاجتماعي ليمتد أثرها كخطر على الصحة حيث يشكل الجلوس خلف عجلة القيادة بمثابة الإدمان مما يقلل من الرياضة الجسدية والمشي اليومي المفيد لحرق بضع مئات من السعرات الحرارية والكولسترول الضرورية لجسم سليم وصحة جيدة. كما تقود حوادث السيارات في بعض مدن العالم الثالث غيرها من عوامل القتل والوفاة بأرقام فلكية مذهلة.

تلوث الهواء وآثاره

تلوث الهواء هو من أخطر مظاهر العيش بالمدينة حيث يعيش أكثر من بليون نسمة من الجنس البشري، أي سبع البشر، في مدن هواؤها غير صالح للتنفس. ومصادر هذا التلوث متعددة: المصانع والمصافي ومعامل التكرير ومحطات توليد الطاقة والطائرات ووسائل النقل الحديثة التي تتسبب بأمراض العصر المزمنة مثل الربو. ويسبب تلوث الهواء إضعاف قدرة النباتات على مكافحة الأمراض التي تصيبها مما يزيد من قدرة الطفيليات والعفن الذي يصيبها. وتقدر قيمة الخسائر في الأخشاب نتيجة لذلك في أوروبا سنويا بأكثر من ٢٩ بليون دولار. أما في أوروبا الشرقية وحدها فتقدر قيمة الخسائر في محاصيل الأخشاب اللازمة للصناعات الورقية وغيرها من أعمال النجارة أكثر من ٧٠ مليون متر مكعب، مقارنة بنظيرتها في بقية أوروبا والتي تقدر بحوالي ٤٨ مليون متر مكعب.

في مدن الصين يتم حرق ٩٠٠ مليون طن من الفحم يوميا، حيث تختفي خلف سحب الدخان الكثيفة، التي يطلق عليها «التنين الأصفر»، وبحيث تتعذر رؤيتها بالأقمار الصناعية. في هنغاريا تعزو الجهات الصحية موت كل واحد من ١٧ حالة إلى تلوث الهواء. في بومباي فإن استنشاق الهواء يعادل تدخين ١٠ سجائر يوميا. في بكين بالصين أمراض الجهاز التنفسي شائعة لدرجة تسميتها «سعال بكين». وتعد مدينة مكسيكو أسوأ مدينة من حيث الهواء الملوث على وجه الأرض، وهي أسوأ أربع مرات من مدينة لوس أنجلوس وأسوأ ست مرات من الحد المسموح به بحسب معايير منظمة الصحة العالمية. وسبب ذلك هو موقعها بين الجبال حيث لا تسمح الجغرافيا بتبدل الهواء لوقوعها ضمن صحن فراغي بين الجبال. أما مستوى الأوزون فيتجاوز مستويات المكسيك المترهلة أصلا ويكون الفصل الجاف أسوأها. ويعزى ٩٠ بالمائة من مشاكل الجهاز التنفسي للهواء الفاسد الملوث بالمدينة.

كما تعاني المجتمعات الإنسانية في العديد من المدن الصناعية الحديثة من أخطار الملوثات البيئية مما تطلب من المخططين الحضريين والمعماريين معالجة بنية المدينة الحديثة بما يقاوم هذه الآفات الصحية المستحدثة. وأمام موجة العولمة بكافة أشكالها الاقتصادية والاجتماعية والإعلامية وعولمة الاتصال، باتت بنية المدينة المعاصرة مهددة أكثر من ذي قبل أمام خطر داهم يهدد الصحة العامة. إن ترشيد استهلاك الطاقة في البيئات الحضرية وتقليل افرازها لجعل المدن الإنسانية قابلة للحياة والديمومة وصحية. فالمدن تسرب الطاقة بكمية أكبر ١٠٠ مرة من التجمعات الإنسانية التي تراعي البيئة المحيطة، والتي سادت تاريخيا، وبنفس المساحة. في الوقت الحالي فإننا من خلال الطاقة التي تستهلكها مدننا نستهلك مئات الآلاف من أضعاف كميات الوقود المتحجر الذي تكونه طبقات الأرض وبشكل هائل يفوق الفترات الزمنية اللازمة لتكونها عبر عشرات ومئات السنين بطريقتها الطبيعية.

ردود أفعال في مدن «بائسة»

ويشيع في أوساط مخططي المدن مصطلحات متعلقة «بالصحة المدينية» والطب «الوقائي» الذي بات يشمل طبيعة تخطيط المدن من أجل «تشجيع الصحة» ورفع معدل «التوقع العمري» للفرد، في إطار مكافحة مشاكل المدن البيئية وأخطارها على صحة القاطنين بها. ويتم ذلك من خلال الرياضة والتغذية الجيدة، ومن خلال توفير المساحات الخضراء واتباع أنماط بيئية تراعي صحة المجتمع العامة، بتشجيع مناطق المشاه لحرق السعرات الحرارية وممارسة الرياضات المختلفة ومنها الجري بتوفير المتنزهات وغيرها. فالجسم البشري مصمم ليعمل بطريقة تعتمد الحركة المستمرة وعلى نمط أجدادنا ساكني الغابات وجامعي الثمار الذين تنفسوا الهواء النقي ومارسوا المشي لمسافات طويلة على الأقدام وسكنوا في مجتمعات بها تقارب عاطفي ونفسي.

في المدن المعاصرة تجد سكان المدن يتنفسون هواء ملوثا وهم خاملون وقليلو الحركة وقليلو المشي وغالبا ما يكونون منعزلين نفسيا وعاطفيا وأحيانا جسديا ويأكلون الطعام المصنع بمضافاته من المواد الحافظة والكيماوية والمشروبات الغازية. وهكذا أصبحت المدينة المعاصرة بحسب فئة من علماء الحضرية مكانا صناعيا مصنعا بكل ما فيه من مكونات، وباتت مصنعا يلفظ الأمراض المزمنة والمختلفة وتدار من قبل فئات جشعة تتحكم في صحة وحياة الأفراد، كسجن كبير بما فيها من أنماط حياة شبه قسرية يسلكها قاطنوها تحدد أساليب معيشتهم بما يحقق مكاسب الرأسمالية والعولمة وبما يدمر حياة أفرادها وساكنيها.

أنماط حياة ضارة للمدن المعاصرة

في الفيلم الوثائقي الشهير (Super Size Me؛) الذي تم انتاجه عام ٢٠٠٤ يقرر المخرج والكاتب والمنتج والممثل نفسه وعمره ٣٢ عاما إجراء تجربة على مدى التأثير السلبي على الصحة العامة الذي تحدثه الوجبات السريعة. فقد تناول وجبات البرغر من مطاعم «ماكدونالدز» لمدة شهر كامل (من فبراير – مارس ٢٠٠٣)، رصد وبالتعاون مع طبيبه الآثار المترتبة على تناول هذا النوع من الأطعمة وتأثيره المدمر على الصحة.

قبل بداية التجربة كان المخرج يتمتع بصحة وجسم رياضي ذي عضلات وكان وزنه طبيعيا وليس عنده أمراض مزمنة كالضغط وغيره مطلقا. وبانتهاء الشهر، وبعد تناول ثلاث وجبات يوميا من همبرجر ماكدونالدز فقد تناول يوميا ٥ آلاف كالوري بما يعادل ١٠ وجبات (Big Macs). وبالنتيجة، زاد وزنه حوالي ١٢ كيلوغراما أو حوالي ١٣٪ من كتلة وزنه السابقة، كما زادت كمية الكولسترول في جسمه لتصبح ٢٣٠، وأصبح يعاني من اعتلال في المزاج ومشاكل جنسية، وتلف في الكبد. وقد تطلب منه الأمر ١٤ شهرا من الرياضة المضنية بعد انقضاء التجربة للتخلص من الوزن الذي زاده خلال شهر التجربة.

حلول حكومية لمعالجة آفات المدن الكبيرة على صحة الفرد

ولذلك وفي مقابل ذلك فثمة ثورة حكومية شاملة لمواجهة تنامي الأمراض المزمنة بين الأطفال كارتفاع ضغط الدم والسكري من النوع الثاني، الذي غالبا يصيب البالغين فوق سن الأربعين، والذي بدأ يشيع بين أطفال مراهقين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة بشكل تاريخي خطير وغير مسبوق. فبعد أكثر من ثلاثين عاما من انتشار «ثقافة» الوجبات السريعة، بدأت الحكومات تتنبه لأخطارها على بنية المجتمعات المعاصرة وتشكيلة المدينة ونمط حياتها، وبدأت مرحلة دق ناقوس الخطر لإعادة التوازن الغذائي وإعادة قراءة وتشكيل مدينة اليوم لما كانت عليه قبل ثلاثة عقود. وبدأت الحكومات تتنبه «للطب الوقائي» وضرورة التوعية بين المواطنين كوسيلة أكثر فاعلية لصحة الأفراد وميزانيتها معا. وفي بعض الدول الغربية، ومنها بريطانيا، حيث بدأت تشيع نسبة البدانة بين الأطفال بمعدل طفل من بين كل خمسة بما سيجعل الجيل القادم خلال ثلاثين عاما جيلا من البدناء بدأت إجراءات احترازية شاملة بمنع ماكينات بيع الكوكاكولا أو البطاطا المقلية أو الشوكولاته داخل المدارس. وبدأت حملة توعية شاملة تتضمن تقديم وجبة صحية تحتوي على الفاكهة والخضار والسلطة الخضراء، مع منع إعلانات الوجبات السريعة والحلوى، أو «الأغذية المصنّعة عالية الدهون والمشبعة بالزيوت» مثل الدجاج المقلي والبيتزا والبرغر، قبل الساعة التاسعة ليلا موعد نوم الأطفال.

أطروحة في تخطيط «المدينة السعيدة» لرفع فعالية البيئة الحضرية

من الأسئلة المهمة التي تطرح في فضاء التغيرات التي تضفيها المدينة الحديثة على البيئة الطبيعية أسئلة التعددية البيولوجية والأخطار البيئية والصحية التي بات الإنسان يهدد نفسه بها ويهدد ما حوله من كائنات باتت مهددة بخطر الانقراض. فالبيئة المحيطة تثبت أن بها تنوعا مذهلا لم يتمكن العلم الحديث من سبر أكثر من السطح منه فقط. فملء اليد من التربة الطبيعية تحوي أكثر من ٢٠٠٠ نوع من المخلوقات التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ولها قوانين الطبيعة في الدفاع ودورة الغذاء. وهذه المساحة المحدودة من التربة تخفي عن أعيننا مما لا نرى أكثر من مليون مخلوق منها البكتيريا كأحد أنواعها.

في الخسائر التي يخسرها جنس البشر من فقد أنواع عديدة من الكائنات التي تعمل على خلق توازن بيئي فريد. فالبكتيريا التي تشكل معظم هذا الكون وتشكل أكثر من ٩٠٪ من جسم الإنسان تقدم للبشر خدمات مجانية جليلة، وهناك ما لا يعرفه العلم بعد من خدمات الكائنات المحيطة التي يشكل فقدها كارثة. فالهواء والماء والتراب كلها تعمل في خدمة الإنسان ومجانا. ويعتقد أن هناك ٥ موجات عاشها العالم من الانقراض للكائنات المحيطة كل منها امتد عبر آلاف السنين. ولكن يعتقد أن الموجة السادسة هي أخطرها إذ يعتقد أن السرعة هي عنوانها إذ أن هناك كائنات مهددة بالانقراض في غضون ١٠٠ سنة فقط.

ولا تفي المدن بوظائفها وواجباتها تجاه سكانها بدون تحقيق شرط أساسي إن اخفقت في توفير عامل الصحة العامة وبيئة صحية للقاطنين. فالصحة للبشر تعتمد على نظام حياة ومعيشة وأيضا على مجموعة متغيرة ومتزايدة على الدوام من مناطق حضرية يتم تخطيطها وتصميمها تبعا لما يسمى «الصحة المتوقعة تكون في بال المخطط على الدوام».

إن زيادة المساحات الخضراء وتقليل مستويات التلوث الصوتي وتوفير الإسكان الجيد والمحافظة على بيئات آمنة صحية وسعيدة تفرز جميعا نتائج جيدة بالمدن. هذه البيئة الخضراء الصحية داخل المدن تعني عدم الحاجة للتوسع المطرد للمدينة على الدوام خارج حدودها الجغرافية بحثا عن المتنفسات الخضراء والبيئة الصحية هربا مما تعاني منه المدن الحديثة من تلوث صوتي وبيئي واكتظاظ عمراني ومشكلات مرتبطة بالحضرية، اجتماعية واقتصادية وغيرها ..

وللحديث بقية